وحده القادر على أنْ يجازينى بما أستحق .

ووَصْف الأجر بأنه عظيم يدلُّ على كِبَر فى الحجم ، ونَفَاسة فى الصفات ، وامتداد فى الزمن ، وهذه هى عناصر العظمة فى الشىء ، وأىُّ أجر أعظم من أجر الله لعباده فى الآخرة ؟

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦) ﴾

جمعتْ هذه الآية أيضاً بين المذكر والمؤنث فى ﴿ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ .. (٣٦) ﴾ [الأحزاب] فهى امتداد للآية السابقة ، فهى تخدم ما قبلها ، وتخدم أيضاً ما بعدها ، وما به أصل السبب ؛ لأنها نزلتْ فى عبد الله بن جحش وأخته زينب ، حين رفضا زواج زينب من زيد بن حارثة ، فالمؤمن عبد الله بن جحش ، والمؤمنة أخته زينب من حيث هما سبب لنزول الآية ، وإلا فهى لجميع المؤمنين وجميع المؤمنات .

وسبق أنْ ذكرنا قصة زيد بن حارثة ، وملخصها أنه سُرق من أهله ، وبِيع فى سوق العبيد على أنه عبد ، فاشتراه حكيم بن حزام ،

---

(١) **سبب نزول الآية :** قال ابن عباس : خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة رضى الله عنه ، فاستنكفت منه ، وقالت : أنا خير منه حسباً ، وكانت امرأة فيها حدة . فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ .. (٣٦) ﴾ [الأحزاب] أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٤٨٩) ، والسيوطى فى « أسباب النزول » . (ص ٢٢٠) .

ثم وهبه للسيدة خديجة أم المؤمنين ، فوهبته خديجة رضى الله عنها لسيدنا رسول الله ﷺ ، فصار مَوْلىً لرسول الله .

وبينما هو ذات يوم بالسوق ، إذ رآه جماعة من قومه فعرفوه ، وأخبروا أباه أنه بالمدينة ، فجاءه أبوه وأعمامه ، وحكَوْا لرسول الله قصته ، وطلبوا عودته معهم ، فقال رسول الله : خيِّروه ، فإنِ اختاركم فهنيئاً لكم ، وإنِ اختارنى ، فَمَا كان لى أنْ أُسْلمه ، فردَّ زيد وقال : والله ما كنت لأختار على رسول الله أحداً .

فأراد سيدنا رسول الله أنْ يكافىء زيداً على هذا التصرف ، فنسبه إليه على عادة العرب فى هذا الوقت ، فسمَّاه زيد بن محمد[1] .

فلما أراد الحق سبحانه أن ينهى هذه العادة ومثلها عادة الظهار ، نزل قوله سبحانه : ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِى تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ** .. ٤ ﴾ [الأحزاب]

فكما أن الرجل لا يكون له إلا قلب واحد ، كذلك لا يكون له إلا أب واحد ، وشاء الله أنْ يبدأ بمُتَبنَّى رسول الله ؛ ليكون نموذجاً تطبيقياً عملياً أمام الناس ، وكانت هذه الظاهرة يترتب عليها أنْ يرث المتبنَّى من المتبنِّى بعد موته ، وأنْ تُحرم زوجة المتبنَّى أنْ يتزوجها المتبنِّى .

صحيح أن القضاء على هذه العادة قضاءٌ على نظام اجتماعى فاسد موجود فى الجزيرة العربية ، لكنه فى الوقت نفسه دليل على أن رسول الله ﷺ تبنَّى كما يتبنَّى العرب ، وأن الله تعالى أبطل من

---

(١) انظر سيرة النبى لابن هشام (١/٢٤٨ ، ٢٤٩) .

رسول الله هذا التصرّف ؛ وهذا سيفتح الباب أمام معاندى رسول الله أنْ يَشْمتوا فيه ، وأن تتناوله ألسنتهم ؛ لذلك عالج الحق سبحانه هذه القضية علاج ربٍّ بإنفاذ الأمر فى نُصْرة حبيب له ، فلم يُشوِّه عمل الرسول ، إنما جعل فعْله عَدْلاً ، وحكمه سبحانه أعدل ، فقال : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. ۝ ﴾ [الأحزاب]

والمعنى : إنْ كُنتم جعلتم من العدل والمحبة أنْ تكفلوا هؤلاء الأولاد ، وأنْ تنسبوهم إليكم ، فهذا عَدْل بشرىٌّ ، لكن حكم الله أعدل وأقْسَط ، وشرفٌ لرسول الله أنْ يردَّ اللهُ حكمه إلى حكم ربه ، وشرفٌ لرسول الله أن يكون له الأصل فى المسألة ، وأنه يحكُم ، فيردّ الله حكمه إلى حكمه ، فهذا تكريم لرسول الله .

فقوله تعالى ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ..۝ ﴾ [الأحزاب] يعنى : أن فعْل محمد كان قسْطاً وعَدْلاً بقانون البشر ، وقد جاء محمد ليُغيِّر قوانين البشر بقوانين ربِّ البشر ، وبهذا خرج سيدنا رسول الله من هذا المأزق .

أما زيد فقد عوَّضه الله عما لحقه من ضرر بسبب انتهاء نسبه إلى رسول الله ، فصار زيد بن حارثة بعد أنْ كان زيد بن محمد ، عوَّضه الله وأنصفه بأنْ جعله العَلَم الوحيد من صحابة رسول الله الذى ذُكر اسمه فى القرآن الكريم بنصِّه وفصِّه ، فقال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. ۝ ﴾ [الأحزاب] فَخُلِّدَ زيد فى كتاب يُتْلى ، ويُتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة .

وعلاقة زيد بن حارثة بما نحن بصدده من قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ .. ۝ ﴾ [الأحزاب] أنه تزوج من السيدة زينب بنت جحش ، زوَّجه إياها رسول الله ، وقد نزلتْ هذه الآية فى زينب ،

وفى أخيها عبد الله[1] .

ومعنى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ .. (٣٦) ﴾ [الأحزاب] معنى (ما كان) أى : أنه شيء بعيد ، لا يمكن أنْ يَرِد على العقل ، أى : أنه أمر مُسْتبعد غير مُتصوَّر ، وكان المنفية تدل على جَحْد هذه المسألة ، فالمؤمن والمؤمنة ، ما دام أن الإيمان باشر قلبيهما لا يمكن أنْ يتركا أمر الله وحكمه ، أو أمر رسوله إلى اختيارهما .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ .. (٣٦) ﴾ [الأحزاب] وإلا فلا إيمانَ لا بالله ، ولا برسول الله .

فإنْ قُلْتَ : كيف وقد أثبتَ الله الاختيار ؟ نقول : هناك فرق بين اختيار داخل فى التكليف ، إنْ شئْتَ فعلْته أو لم تفعله ، وشيء فى إيجاد التكليف بداية ، فليس للعباد دخْل فى إيجاد الشيء المكلَّف به ، إنما إذا كلَّفتهم أنا ، فأنا صاحب التكليف ، وكونهم يطيعونه أو لا يطيعونه ، فهذا أمر آخر ، ليس للعباد أن يقترحوا التكليف على هواهم ؛ لأن التكليف لى ، ولهم الاختيار فى طاعته وفى قبوله ، وما دام قد ثبت أنهم آمنوا بالله وآمنوا برسول الله فكان من الواجب عليهم أنْ يرتضوا الأمر ، وألاَّ يُعرِضوا عنه إلى غيره .

وقصة طلاق زيد وزينب ، ثم زواج سيدنا رسول الله ﷺ منها

---

(١) هو : عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدى ، صحابى ، قديم الإسلام ، هاجر إلى بلاد الحبشة ، ثم إلى المدينة ، وكان من أمراء السرايا ، وهو صهر رسول الله ﷺ ، أخو زينب بنت جحش أم المؤمنين . قتل يوم أحد شهيداً ، فدفن هو والحمزة فى قبر واحد عام ٣ هجرية . [الأعلام للزركلى ٤/٧٦] . والحمزة بن عبد المطلب عم رسول الله هو خال عبد الله بن جحش ، فأمه هى أميمة بنت عبد المطلب .

قصة خاضَ فيها المستشرقون والمغرضون كثيراً ، وتجرأوا على سيدنا رسول الله بكلام لا ينبغي فى حقه ﷺ ، ومن قولهم أن محمداً أحبَّ زينب وأرادها لنفسه ، فأمرها أنْ تشاغب زيداً حتى يطلقها فيتزوجها .

ونقول لهؤلاء الأغبياء : أولاً زينب بنت جحش الأسدية هى بنت عمة رسول الله ، وكان ﷺ مُكلَّفاً بإدارة أموالها ورعاية شئونها ، وقد نشأتْ تحت عينه ، ولو أرادها لنفسه لتزوَّجها بداية ، وهذا بنصِّ القرآن : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب]

فإنْ أردتَ أنْ تعرف ما أخفاه رسول الله فخُذْه مما أبداه الله ، والذى أبداه الله قوله تعالى ﴿ لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب] وهذا يهدم كلَّ ادعاءاتكم على رسول الله .

أما قولهم بانشغال قلب رسول الله بزينب ، فنقول : ولماذا تجعلون انشغالَ قلب محمد انشغالاً جنسياً ؟ ولو تتبعتُم القصة من أولها لظهر لكم غير ذلك ، فحينما أرسل رسول الله مَنْ يخطب زينب ظنَّ أخوها عبد الله وأختها حَمْنة أنه جاء ليخطبها لرسول الله ، فلما علموا أنه يخطبها لمولاه زيد غضبوا جميعاً ، فكيف تتزوج السيدة القرشية وبنت عمة رسول الله من عبد ، لكن لما علموا أن الأمر من الله أذعنُوا له ووافقوا .

ثم بعد أنْ تزوجتْ زينب من زيد تعالتْ عليه ، بل وشعر أنها تحتقره لهذا الفارق بينهما ، فكان زيد يشتكى لرسول الله سوءَ معاملة زوجته له ، وأنها كما نقول (منكدة عليه عيشته) ، وأنها تعيش معه فى بيت الزوجية بالقالب لا بالقلب ، لكن حبه لرسول الله كان يمنعه من طلاقها ، وهو أيضاً لا يريد أن يخسر هذا الشرف الذى ناله

بالزواج من ابنة عمة رسول الله .

وكان سيدنا رسول الله فى كل مرة يشتكى فيها زيدٌ من زينب يقول له ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب] ولو أرادها الرسول لنفسه لقال له طلِّقها ، ولوجد الفرصة أمامه سانحة .

ويجب أن نبحث هنا علاقة المرأة بالرجل ، فالخالق سبحانه خلق الرجل للمرأة ، والمرأة للرجل ؛ لذلك نجد المرأة العربية أم إياس ، وهي تُوصى ابنتها لما خطبها الحارث ، تقول : « أىْ بُنية ، إنك لو تُرِكْتِ بلا نصيحة لكنت أغنى الناس عنها ، ولو أن امرأة استغنتْ عن الزوج لغنى أبويها وشدَّة حاجتهما إليها لكنت أغنى الناس ، ولكن الرجال للنساء خُلقْن ، ولهُنَّ خُلق الرجال ، وأن النصيحة لو تركتْ لفضل أدب لتركت لذلك منك ، ولكنها تذكرةٌ للغافل ومعونة للعاقل » .

وقلنا : إن الإنسان يستطيع أنْ يعيش أفضل ما يكون من مأكل ومَشْرب وملبس ومسكن ، لكنه مع ذلك لا يستغنى بحال عن الزوجة والمرأة كذلك ؛ لذلك يقول رسول الله ﷺ : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرتُ الزوجة أن تسجد لزوجها »(١) .

لماذا ؟ لأن الزوج يعطيها ما يعطيه الأب والأم والإخوة ، ويزيد على ذلك مما لا يقدرون ولا يستطيعون .

الشاهد أن المرأة للرجل ، والرجل للمرأة ، مهما وضعوا من أسوار من عزٍّ أو من جبروت ، أو غيره .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٨١/٤) عن عبد الله بن أبى أوفى أن رسول الله ﷺ قال : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، ولا تؤدى المرأة حق الله عز وجل عليها كله حتى تؤدى حق زوجها عليها كله ، حتى لو سألها نفسها وهى على ظهر قتب لأعطته إياها » . والقتب : رَحْل صغير على قدر سنام الجمل .

إن المسألة بالنسبة لزيد كانت صعبة ؛ لأن الله تعالى جعل للزواج ثلاث مراحل ، وردتْ في قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً .. (٢١)﴾ [الروم]

فالأولى أنْ يسكن الزوج إلى زوجته ، وأنْ يطمئن إليها ، ويرتاح بجوارها حين تمسح عنه عرقه ، وتحتويه بعد تعب اليوم ومشاقّ الحياة ، فإن امتنع السَّكَن بسبب مُنغِّصات الحياة ، فليكُنْ بينهما مودة تجمعهما ، ولِمَ لا ، وأنت حين تصاحب صديقاً مثلاً مدة طويلة تجد له مودة في قلبك ، وتجد أن لهذه المودة ثمناً ، فتتحمله إنْ أخطأ ، وتسامحه إنْ أساء ، فما بالك بالزوجة ، أليست أحق بهذه المودة ؟

فإذا ما فُقدَت المودة أيضاً ، فليبْقَ بين الزوجين التراحم ، فليرحم كل منهما الآخر إنْ أصابه الكِبَر أو المرض ، أو غير ذلك .

وقد وصل زيد مع زينب إلى مرحلة فقد فيها السَّكَن والمودة والرحمة بسبب ما بينهما من فارق .

أمر آخر ، إنْ كان رسول الله ﷺ قد فكَّر في أمر زينب ، فلماذا تعدلون به إلى التفكير في الغريزة ؟ ولماذا لا تعدلون به إلى مرتبة الإنصاف . وهو الذي أرغم زينب على الزواج من زيد ، وهي الشريفة القرشية ، وهو العبد المملوك ، فلما وضعها في هذا المأزق أراد أنْ يُطيِّب خاطرها ، ويصلح ما كان منه بأنْ يضمها إليه ، فتصير إحدى أمهات المؤمنين .

ثم مَن الذي منع رسولاً قال الله عنه أنه بشر من أن تكون له هذه الرغبة ، وكل الرسل السابقين كان لهم هذه ـ هذا على فرض رغبة رسول الله في زينب ـ لكن الناس لم يُحسنُوا الظن .

والذى يدلُّنا على أن هذه المسألة كانت ترتيباً ربانياً صرْفاً ما نجده من الرياضة الإيمانية بين كل من سيدنا رسول الله ، ومولاه زيد ، وابنة عمته زينب ، فقد جمعهم الثلاثة رياضة إيمانية كما نقول نحن الآن : فلان عنده روح رياضية .

يعنى : يتقبل الهزيمة بروح عالية بدون عداوات أو أحقاد ، فلقد انصاع الجميع لأمر الله بهذه الروح الإيمانية .

أما الذين يأخذون من قوله تعالى فى حق رسوله ﴿ **وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ..** (٣٧) ﴾ [الأحزاب] يأخذونها سُبَّة فى حقِّ الرسول ، فعليهم أنْ يعلموا أنَّ الخشية نوعان : خشية من شيء تخاف أنْ يضرك ، وخشية استحياء ، فالخشية فى ﴿ **وَتَخْشَى النَّاسَ ..** (٣٧) ﴾ [الأحزاب] خشية استحياء ، ويكفى أن الحق سبحانه قال فى حق رسوله ﷺ[1] : ﴿ **إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِى مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِى مِنَ الْحَقِّ ..** (٥٣) ﴾ [الأحزاب]

فالخشية هنا تعنى خَوْف رسول الله من ألسنة الكفار التى ستخوض فى حقه ، والتى ستقول إن محمداً تزوَّج من امرأة مُتبنَّاه ، لكن غاب عن هؤلاء أن الله تعالى ألغى مسألة التبنى ، فليس لهم

---

(١) وذلك أن رسول الله ﷺ حين بنى (دخل) بزينب بنت جحش ، صنع وليمة خبز ولحم فدعا الناس إليها . فأخذ يجيء قوم فيأكلون ويخرجون ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون وبقى ثلاثة رهط يتحدثون لم يخرجوا ورسول الله يريد أن يخلو بزينب . عروسه وهم جالسون ، فخرج ثم عاد ، ثم خرج . ثم عاد حتى أخبر أن القوم قد خرجوا . وكان شديد الحياء ، فنزل قوله تعالى . ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِى مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِى مِنَ الْحَقِّ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] انظر : أسباب النزول للواحدى (ص ٢٠٥) . وتفسير ابن كثير (٣/ ٥٠٣) .

حجة ، وطبيعى أن يخاف رسول الله من ألسنة الكفار ؛ لأنه جاء لنقض عادات وتقاليد جاهلية ، وكان هو ﷺ أول مَنْ تحمَّل تبعة هذا التغيير ؛ لأنه جاء على يديه وفى شخصه ﷺ .

وسيدنا رسول الله حين يستحى من زواجه من زينب أو من كلام الناس ، فإنما يريد أنْ يبرىء عِرْضه وساحته ، مما يشين ، وقد كان ﷺ يدفع الشبهة عن نفسه دائماً ، لذلك لما رآه بعض أصحابه مع امرأة ، فمالوا عنه ﷺ خشيةَ أنْ يتسببوا له فى حرج ، فناداهما رسول الله : « على رِسْلكما إنها صفية » فقالوا : نحن لا نشك فيك يا رسول الله ، فقال : « إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم »[1] .

فرسول الله يريد أن ينفض عن نفسه أىَّ شبهة ، يريد ألا يجعل لأحد جميلاً عليه ، بأنه ستر على رسول الله .

ولا أدلَّ على حيائه ﷺ من قصته مع عبد الله بن سعد بن أبى السرح ، فلما دخل ﷺ مكة فاتحاً ومنتصراً كان قد أهدر دم عبد الله بن سعد بن أبى السرح ؛ لأنه نال كثيراً من رسول الله[2] ، فجاء عثمان بن عفان رضى الله عنه يستأمن لعبد الله من رسول الله ـ يعنى : يطلب له الأمان ـ فما ردَّ عليه رسول الله ، وكان ينتظر أن يقوم رجل من القوم فيقتل عبد الله ، لكن عثمان أعادها مراراً على

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٢١٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢١٧٥) من حديث صفية بنت حُيىّ .

(٢) كان عبد الله بن سعد بن أبى سرح قد أسلم قديماً وكتب لرسول الله ﷺ الوحى ثم افتتن وخرج من المدينة إلى مكة مرتداً فأهدر رسول الله دمه يوم الفتح . [الطبقات الكبرى لابن سعد ٥٠٢/٩] .

رسول الله حتى أنه استحى من عثمان فأمَّن عبد الله ، فلما أمَّنه أخذه عثمان وانصرف من مجلس رسول الله .

فقال رسول الله لصحابته : « ألم يكن فيكم رجل رشيد يقوم إليه فيقتله ؟ » يعني : قبل أن يُكلِّمه عثمان فيكون قد سبق السيف العذل[1] كما يقولون ، فقام عبد الله بن بشر وقال : يا رسول الله ، لقد كانت عيني في عينك ، أنتظر إشارة منك لأقتله ، لكنك لم تفعل ، فقال سيدنا رسول الله - انظر إلى العظمة « ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين »[2] .

أذكر أنه كان لنا أستاذ ، هو سيدنا الشيخ موسى شريف رحمه الله ورضي الله عنه ، وكان رجلاً له مدد من الله ، وقد فسر لنا هذه الآية ، وكنا نذاكر دروسنا قبل أن نحضر درسه ، وكان يصطفيني من بين إخواني الموجودين أمثال الشيخ حسن جاد ، والدكتور خفاجة وأبي العينين وغيرهم ، ليسألني عن مذاكرتنا وما وقف أمامنا من قضايا ، فناداني وكان قد علم من أبي اسم أمي ، فناداني بها فتقدَّمت إليه ، فضربني على قفاي ضربة انحلَّتْ معها القضية التي كانت تقف أمامنا ، تماماً كما تضرب الذي يعاني من (الزغطة) ضربة على ظهره فتذهب .

ولما حدَّثنا الشيخ عن قصة سيدنا عثمان هذه جاء في اليوم التالي وقال : يا أولاد ، رأينا الليلة سيدنا عثمان بحيائه ، فقلت له :

---

(١) العذل : اللوم والتأنيب . وقال ابن منظور في [لسان العرب - مادة : عذل] : « قولهم في المثل : سبق السيف العَذَل ، يُضرب لما قد فات . وأصل ذلك أن الحارث بن ظالم ضرب رجلاً فقتله ، فأخبر بعذره ، فقال : سبق السيف العذل » .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤٣٥٩) ، وكذا النسائي في سننه (٧/ ١٠٥ ، ١٠٦) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه . ولفظ أبي داود والنسائي : « إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين » .

كيف تستأمن لرجل قال فى رسول الله كذا وكذا ؟ فقال لى : ألاَ تعلم أن الله يحب مَنْ تاب ، فـقلت لرسـول الله ﷺ - ولم يـقل : أنا رأيتُ رسول الله - ما الذى جعلك تقـبل شفاعة عثمان ؟ فـقال : ألاَ أستحى من رجل تستحى منه الملائكة[1] ؟

فالنبى ﷺ بطبيعته كان شديد الحياء .

ثم يقول تـعالى : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا (٣٦) ﴾ [الأحزاب] وهنا ثلاثة توكيـدات : قد الدالة على التحقـيق وبعدها الفعل المـاضى ، ثم المفعول المطلَق ضـلالاً ، ثم وصف هذا الضلال بأنه مبين .

والضلال هو عدم الاهتداء إلى الطريق المؤدِّى إلى الغاية ، لكن قد يضلّ إنسـانٌ طريقه ، ثـم يأتى مَنْ يفتح عـليه ويدلُّه ، أمـا هذا الذى يعصى الله ورسوله ، فضلاله ضـلال مبين لا يجد مَنْ يدلُّه ، ولا مَنْ يهـديه أبداً ؛ لأن هذا الطريق الذى يسـير فـيـه مُوصِّل إلى الآخـرة ، وليس هناك شىء من ذلك .

كانت هذه (لقطة) لسـيدنا رسول الله ﷺ مع عثمـان وعباد بن بشر أوضـحتْ صفة الحيـاء فى رسول الله ، نعود بعـدها إلى ما كنا بصدده من الحديث عن الرياضة الإيمـانية التى جمعتْ بين رسول الله وكل من زيد وزينب .

---

(١) هذه العبارة قالهـا رسول الله ﷺ عن عثمان رضى الله عنه فى مناسـبة أخرى ، فى حديث أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٤٠١) عن عـائشة قالت : كان رسول الله ﷺ مضطجعا فى بيتى كاشفاً عن فـخذيه أو ساقيه فاستأذن أبو بكر فأذن له وهـو على تلك الحال فتحدث . ثم استـأذن عمر فـأذن له وهو كذلك فـتحدث ، ثم اسـتأذن عثـمان فـجلس رسول الله ﷺ وسوّى ثيـابه ، فلما خرج قالـت عائشة : دخل أبو بكر ولم تهـتش له ولم تباله ، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك فقال : ألا تستحى من رجل تستحى منه الملائكة .

وكان سيدنا رسول الله إذا غاب زيد يذهب فيسأل عنه ، فذهب مرة ، فرأى زينب منشغلة فى أمور بيتها ، وكانت زينب على حالة طيبة ، فقال ﷺ : « تبارك الله أحسن الخالقين » كما ترى مثلاً ابنتك فى مظهر حسن ، فتقول : ما شاء الله .

وكأن رسول الله أراد أنْ يُطيِّب خاطرها ، أو يرفع من روحها نظير ما أجبرها عليه من الزواج بزيد ، ونظير أنها تعيش معه على مضض ، فلما جاء زيد قالت له : لقد جاء رسول الله وسأل عنك وقال لى : تبارك الله أحسن الخالقين ، فقال لها : يا زينب أرى أنْ تكونى لرسول الله ؛ لأنك وقعت فى قلبه ، وأرى أنْ أُطلِّقك ليتزوجك رسول الله ، فبدا عليها الارتياح ، وتعجبتْ كأنها لم تصدق : إذا طلَّقْتنى أتزوج برسول الله ، كان هذا الحوار مجرد كلام .

وبالله لو قيل هذا الكلام فى غير هذا الموقف ، ولواحد غير زيد لغلى الدم فى عروقه ، وفعل ما فعل ، إنما تأمل الرياضة الإيمانية التى تحلَّى بها زيد .

يقول تعالى فى هذه المسألة :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾

معنى ﴿ وَإِذْ تَقُولُ .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب] واذكر جيداً وأدِرْ مسألة زيد فى رأسك ، اذكر إذ تقول للذى أنعم الله عليه بالإيمان ـ والمراد زيد ـ وأنعمتَ عليه بالعتق أولاً ، وأنعمت عليه بقانون البشرية بأنْ جعلْتَه ابناً لك وأنعمتَ عليه بأن زوَّجته ، وهو عبد ، من قرشية ، هى ابنة عمتك ، ثم أنعمتَ عليه حين قُلْت له ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب]

لكن ، لماذا قُلْتَ له هذه الكلمة يا محمد ؟ أخوفاً من كلام الناس أنْ يقولوا : تزوَّج من امرأة مُتبنَّاه ؟ كيف وهذا مقصود من الله تعالى ، إنه يريد أن يُنهى عادة التبنى ، وأنْ يُنهيها على يدك أنت ، فأنت تخفيه خوفاً من كلام الناس ، وقد أبداه الله حين أخبرك بهذه المسألة ، وأن نهايتها ستكون على يديك بأنْ تتزوج امرأة مُتبنَّاك ﴿ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب] فدعْكَ من الناس .

لذلك قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ .. (٣٩) ﴾ [الأحزاب]

وسبق أن أوضحنا أن خشيته ﷺ لم تكن خشية خوف من شىء يضره ، إنما خشية استحياء ليدفع رسول الله الشبهة عن نفسه .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب] الوطر : هو الأشياء التى تناسب معاش الرجل ، فمعناه الغاية أو الحاجة ، وسبق أن قُلْنا : إن وطر الرجل من زوجته أن تكون سكناً ، فإن لم يكُنْ ، فمودة تجمعهما ، فإنْ لم يكُنْ فرحمة متبادلة .

وقد افتقد زيد فى زوجته كل هذه المراحل ، فلم يجد معها ، لا السكن ، ولا المودة ، ولا الرحمة ، فلماذا ـ إذن ـ يستمر فى الارتباط بها ؟ لذلك كان يذهب إلى رسول الله ، فيشتكى له ما يلاقى

من زينب ، فكان رسول الله ﷺ يقول له :

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ..(٣٧)﴾ [الأحزاب]

وتأمل هنا هذه الرياضة الإيمانية بين سيدنا رسول الله وزيد وزينب رضى الله عنهما : لما طلَّق زيدٌ زينبَ تركها رسول الله لتقضى عدَّتها ، فلما قضتْ العدَّة قال : يا زيد اذهب إلى زينب فاخطبها علىَّ[1] ، فما هذه العظمة ؟ رسول الله يبعث المطلِّق ليخطب له المطلَّقة ، وهذا يدل على ثقته فى زيد ، وأنه قد قضى وطره من زينب ، ولم يَعُدْ له فيها حاجة .

ويدخل زيد على زينب ، فيقول لها : أبشرى يا زينب ، لقد بعثنى رسول الله لأخطبك له ، فقالت : والله لا أجيب حتى أسجد شكراً لله ، فقامت زينب فسجدتْ ، عندها عاد زيد إلى رسول الله ، فأخبره ما كان من زينب فجاءها رسول الله ﷺ ، فدخل عليها بلا استئذان[2] .

تُرى لماذا يدخل عليها سيدنا رسول الله بلا استئذان ؟ قالوا : لأنها حينئذ صارت زوجته ، كما قال سبحانه ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا

(١) أخرج ابن سعد فى الطبقات الكبرى (١٠/١٠١) من حديث أنس قال : « لما انقضت عدة زينب بنت جحش قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة . ما أجد أحداً آمن عندى أو أوثق فى نفسى منك . ائت إلى زينب فاخطبها علىَّ . . قال زيد . يا زينب . أبشرى . إن رسول الله يذكرك » . ولكن أخرج ابن سعد أيضاً فى الطبقات (١٠/٩٩) أن رسول الله ﷺ بعد انقضاء عدة زينب أخذته غشية فسُرِّى عنه وهو يتبسَّم وهو يقول : من يذهب إلى زينب يبشِّرها أن الله قد زوجنيها من السماء . قالت عائشة : فخرجت سلمى خادم رسول الله . تشتد فتحدثها بذلك فأعطتها أوضاحاً عليها .

(٢) قاله أنس بن مالك رضى الله عنه « أن زينب ردَّتْ على زيد : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربى . فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن ﴿فلمَّا قضى زيدٌ منها وطرا زوَّجناكها .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] قال : فجاء رسول الله فدخل عليها بغير إذن » أخرجه ابن سعد فى الطبقات الكبرى (١٠/١٠١) ، وابن الأثير فى أسد الغابة (٧/١٢٥) .

وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. ﴿٣٧﴾ [الأحزاب] أي : زوَّجه الله بها من فوق سبع سموات .

لذلك كانت السيدة زينب حين تجلس مع زوجات النبي ﷺ - وهذه أيضاً من الرياضات الإيمانية - تقول لهن : إني لأفتخر عليكن جميعاً بأنكن زوجكُنَّ أولياؤكن ، أما أنا فزوَّجني ربي ، فلا تجرؤ إحداهن على الردِّ عليها[1] .

ليس هذا فحسب ، إنما تُدلُّ أيضاً على سيدنا رسول الله ، فتقول له : يا رسول الله ، أنا أُدلُّ عليك بثلاث ، فيضحك سيدنا رسول الله ويقول : أما الأولى ؟ فتقول : أما الأولى فجدِّي وجدُّك واحد ، وأما الثانية فلأن الله زوَّجني من فوق سبع سموات ، وأما الثالثة فلأن سفيري في الزواج لم يكُن زيداً ، إنما كان جبريل[2] .

فأيُّ عظمة هذه التي نلاحظها في هذه القصة ، وأيُّ رياضة إيمانية عالية من رسول الله وصحابته ؟

إذن : لم يتزوج رسول الله من زينب ، إنما زوَّجه ربه ؛ لذلك نقول للمغرمين بالخوض في هذه المسألة ، يحسبونها سُبَّة في حق رسول الله : افهموا الفرق بين زُوِّج وتزوج . تزوج أي : بنفسه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٢٠) من حديث أنس بن مالك أن زينب كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول : « زوَّجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات » .

(٢) ذكره ابن حجر العسقلاني في فتح الباري (٤١٢/١٣) ببعض هذه الألفاظ من مرسل الشعبي « قالت زينب : يا رسول الله ، أنا أعظم نسائك عليك حقاً ، أنا خيرهن منكحاً ، وأكرمهن سفيرا ، وأقربهن رحماً ، فزوَّجنيك الرحمن من فوق عرشه ، وكان جبريل هو السفير بذلك ، وأنا ابنة عمتك وليس لك من نسائك قريبة غيري » أخرجه الطبري وأبو القاسم الطحاوي في « كتاب الحجة والتبيان » له» .

وبرغبته ، إنما زُوِّج أى زوَّجه غيره ، وكلمة ﴿زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧)﴾ [الاحزاب] تحتوى على الفعل زوَّج والضمير (نا) فاعل يعود على الحق سبحانه ، والكاف لخطاب رسول الله ، وهى مفعول أول ، والهاء تعود على السيدة زينب ، وهى مفعول ثانٍ للفعل زوَّج .

فرسول الله فى هذه المسألة ، وفى كل زوجاته لم يخالف عن أمر الله . فلتكونوا منصفين ؛ لأن المسألة ليستْ عند محمد ، إنما عند رب محمد ، واقرأوا إن شئتم : ﴿**عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ**[1] **ثَيِّبَاتٍ**[2] **وَأَبْكَارًا** (٥)﴾ [التحريم]

ثم هَبُوا - جدلاً - أن محمداً فعلها ، ما العيب فيها وقد كان التعدُّد موجوداً ، ولم ينشىء رسول الله تعدُّداً ، كان التعدُّد موجوداً فى الأنبياء والرسل ، وفيكم وعندكم .

أما الذين يتهمون رسول الله ﷺ بأنه وسَّع على نفسه ، فتزوَّج تسعاً ، وضيَّق على أمته بأربعة ، فالرد على ذلك أن الله تعالى حكم بأن زوجات الرسول أمهاتٌ للمؤمنين ، وما دُمْنَ أمهات للمؤمنين ، فليس لأحد أنْ يتزوَّجهُنَّ بعد رسول الله ، أمَّا غيرهن من المؤمنات فإنْ كان مع الرجل سبعة مثلاً ، فعليه أنْ يفارق ثلاثة منهن ، وهؤلاء الثلاثة سيجدْنَ مَنْ يتزوج بهنَّ ، إذن : على الرسول أنْ يُمسك زوجاته كلهن ، وعلى غيره من المؤمنين أنْ يفارقوا ما زاد على أربع .

---

(١) سائحات . أى : صائمات . قاله أبو هريرة وعائشة وابن عباس وغيرهم كثير ذكر ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٩٠) ثلاثة عشر عالماً آخر قالوا بهذا القول ثم قال : وقال زيد ابن أسلم وابنه عبد الرحمن : سائحات أى مهاجرات ، والقول الأول أولى والله أعلم .

(٢) الثيب : المرأة التى سبق لها الزواج سواء كانت مطلقة أو أرملة . قال ابن منظور فى [لسان العرب - مادة : ثيب] : « الثيب من النساء التى تزوجت وفارقت زوجها بأى وجه كان بعد أن مسَّها » .

شىء آخر : تظنون أن رسول الله وسَّع الله له هذه المسألة ، والحقيقة أن الله ضيَّق عليه إذا ما قارناه بغيره من عامة المؤمنين ، فالمؤمن له أنْ يمسك أربعَ زوجات ، فإذا ماتتْ إحداهن تزوج بأخرى ، وإنْ طلَّق إحداهن تزوج بدلاً منها ، فإن مُتْنَ جميعاً أو طلَّقهن ، فله أنْ يتزوَّج غيرهن حتى يكمل الأربعة ، وهكذا يكون للمؤمن أن يتزوَّج بعدد كثير من النساء .

أما رسول الله ـ نعم تزوج تسعاً ـ لكن خاطبه ربه بقوله : ﴿ **لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ** .. (٥٢) ﴾ [الأحزاب] فمَن الذى ضيِّق عليه إذن ؟ محمد أم أمته ؟

ثم يا قوم تنبهوا إلى الفرق بين الاستثناء فى العدد والاستثناء فى المعدود ، هل استثنى الله نبيه فى العدد من أربع إلى تسع ، أم استثناه فى معدود بذاته ، استثناه فى المعدود لا فى العدد ، لأنه لو استثناه فى العدد لكان له إذا ماتتْ إحدى زوجاته أنْ يتزوَّج بأخرى ، إنما وقف به عند معدود بذاته . بحيث لو ماتوا جميعاً ما كان له ﷺ أنْ يتزوَّج بعدهن .

وبعد ذلك أظلَّ الحكمُ على رسول الله هكذا ؟ لا ، إنما كان فى بداية الأمر وبعد ذلك حينما استقرتْ الأمور وأمن الله رسولَه قال له : افعل ما تشاء ، لأنك مأمون على أمتك(١) .

---

(١) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] ولكن ضعَّف القرطبى فى تفسيره القول القائل بأن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى : ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ .. (٥٢) ﴾ [الأحزاب] ورجح القرطبى (٥٤٨٣/٨) أن معناها التوسعة على النبى ﷺ فى ترك القسم ، فكان لا يجب عليه القسم بين زوجاته . قال : « وهذا القول هو الذى يناسب ما مضى ، وهو الذى ثبت معناه فى الصحيح عن عائشة قالت : كنت أغار على اللائى وهبن أنفسهن لرسول الله ، وأقول : أو تهب المرأة نفسها لرجل ؟ فلما أنزل الله ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] قالت عائشة : والله ، ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك » .

ثم نقول : هَبُوا أن رسول الله له اختيار فى هذه المسألة ، ولم تكن مُسْبقة ، ألم يُؤدِّ فعلُه هذا إلى إلغاء عادة التبنى ؟ ثم أنُزِعَتْ الرسالة من رسول الله بعد أنْ فعل ما فعل ؟ إذن : لا يتناقض مراد الله ومراد رسول الله .

والذين تناولوا سيدنا رسول الله فى هذه المسألة مثل الذين تناولوا سيدنا يوسف - عليه السلام - لما قال الله فيه : ﴿ **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ..** (٢٤) ﴾ [يوسف] وكأنهم أكثر غيرةً على يوسف من ربه عز وجل ، نعم همَّ بها يوسف أى : فكَّر فيها أو غير ذلك ، ولن نقول لكم على الصواب لتظلوا فى حيرتكم ، لكن أنزعَ الله منه الرسالةَ بعد ما همَّ بها ؟ إذن : هَمُّه بها لم يناقض الرسالة ، فما تقولونه فى هذه المسألة فضول منكم .

ثم تأتى العلة فى هذه المسألة ﴿ **لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ..** (٣٧) ﴾ [الأحزاب] ثم تختم الآية بما لا يدع مجالاً للشك فى رسول الله : ﴿ **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً** (٣٧) ﴾ [الأحزاب] أى : لا بُدَّ أن يحدث ، ولن يترك لأىِّ شخص آخر ، حتى لا تفسد القضية فى إلغاء عادة التبنى ، إذَن : فزواج رسول الله من امرأة مُتبنَّاه ما كان إلا لرفع الحرج عن جميع المؤمنين ، والآن يصح لكل مُتبنٍّ أن يتزوج امرأة مُتبنَّاه .

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ **مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ ..** (٣٨) ﴾ [الأحزاب] أى :

إثم أو ملامة ﴿ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : كيف تلومون رسول الله على تنفيذ أمر فرضه الله له وتأمل ﴿ فَرَضَ اللَّهُ لَهُ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : لصالحه ولم يقُلْ فرض عليه ؟ ما دام أن الله هو الذى فرض هذا ، فلتُصعِّدوا الأمر إليه ، فليس لرسوله ذنب فيه .

وهذه المسألة تشبه تماماً مسألة الإسراء ، فحين أخبر سيدنا رسول الله قومه بخبر الإسراء قالوا : يا محمد أتدَّعى أنكَ أتيتَ بيت المقدس فى ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً[1] ؟ وهذا غباء منهم لأن محمداً لم يقل : سريْت إنما قال : أُسْرِى بى . فالذى أسرى به ربه ـ عز وجل ـ إذن : المسألة ليست من فعل محمد ، ولكن من فعل الله .

وسبق أن ضربنا لذلك مثلاً توضيحياً ـ ولله المثل الأعلى ـ قُلْنا : هَبْ أن رجلاً قال لك : أنا صعدتُ بولدى الصغير قمة (إفرست) أتقول له : كيف صعد ولدك قمة (إفرست) ؟

لكن انتفعنا الآن بقول المكذِّبين : أتدَّعى يا محمد أنك أتيتَ بيت المقدس فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؛ لأن غباء المكذِّب يؤدى به إلى عكس ما قصده من غبائه ، فهذا القول اتخذناه الآن دليلاً للرد على مَنْ يقولون بأن الإسراء كان رؤيا ، أو كان بالروح دون الجسد .

فلو قال رسول الله : رأيتُ فى الرؤيا أنى أتيتُ بيت المقدس ما

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤) : لما أصبح رسول الله ـ بعد الإسراء به ـ غدا على قريش ، فأخبرهم الخبر ، فقال أكثر الناس : هذا والله الإمْر البيِّن ، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ؟ » .

قالوا هذه المقالة ، إذن : فَهِمَ القومُ أن رسول الله أتى بيت المقدس بروحه وجسده ، وإلا ما قارنوا بين ذهابهم وذهابه ، فالذين عاصروا هذه الحادثة قالوا هذه المقالة ، فكيف نأتى اليوم لنقول : إن الإسراء كان مناماً ، أو كان بالروح دون الجسد ؟

وقوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ .. (٣٨) ﴾ [الأحزاب] أى : إخوانه من الرسل السابقين ، أو فيما كان قبل الإسلام من التعدُّد ، فلم يكُنْ رسول الله بدَعاً فى هذه المسألة .

﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) ﴾ [الأحزاب] تلحظ أن الآية السابقة خُتِمَتْ بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) ﴾ [الأحزاب] فلقائل أن يقول نعم مفعولاً فى هذا الوقت الذى حدثتْ فيه هذه الأحداث ؛ لذلك قال هنا ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) ﴾ [الأحزاب] أى : أن ما حدث لرسول الله كان مقدَّراً أزلاً ، ولا شىء يخرج عن تقدير الله ، وقد صَحَّ أن القلم قد جَفَّ على ما كُتِب ، وعلى ما قُدِر(١) .

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) ﴾

وكأن الحق سبحانه يُعيدنا إلى قوله تعالى فى نبيه محمد : ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب] فالرسل

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٥٠٧٦) أن أبا هريرة رضى الله عنه قال لرسول الله ﷺ : « إنى رجل شاب ، وأنا أخاف على نفسى العنت ، ولا أجد ما أتزوج به النساء ، فسكت عنى ، ثم قلت مثل ذلك ، فسكت عنى ، ثم قلت له مثل ذلك ، فسكت عنى ، ثم قلت مثل ذلك فقال النبى ﷺ : « يا أبا هريرة ، جفَّ القلم بما أنت لاقٍ » وكذا أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (١/ ٥٠ ، ٥١) ، والنسائى فى سننه (٦/ ٥٩) .

لا يخشونَ شيئاً فى البلاغ عن الله ، فكأنه تعالى نفى عن الرسول ﷺ أن تكون خشيته فى البـلاغ ، إنما خشيته استحيـاؤه مخافة أنْ تلوكه ألسنة قومه ، وإلاَّ فَهُمْ لا يملكون له شيئاً يضره أو يخيفه .

نلحظ هنا أن ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ .. (٣٩) ﴾ [الأحزاب] هذه العبارة مبتدأ[1] لم يُخبر عنه ؛ لأن قوله تعالى ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) ﴾ [الأحزاب] ليس خبراً لهذا المبتدأ ، إنما هو تعليق عليه ، فأين خبر هذا المبتدأ ؟ قالوا : تقديره ، الذين يُبلِّغون رسالات الله .. لا يمكن أنْ يُتَّهموا بأنهم خشوا الناس من أجل البلاغ .

﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) ﴾ [الأحزاب] أى : أنكم لن تحاسبوهم ، إنما سيحاسبهم الله ، وكان مقتضى الحساب مع رسول الله إنْ فعل ما لا يصحّ منه أنْ تسحب منه الرسالة ، وأنْ يأتى الله بنبى آخر ، ولم يحدث شىء من هذا .

ثم يعود السياق إلى أمر آخر فى قضية التبنى ، فيقول سبحانه :

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا (٤٠) ﴾

قال سبحانه ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ .. (٤٠) ﴾ [الأحزاب] لأن علاج قضية التبنى أهمُّ من أُبوته ﷺ لأحد منكم أن يكون أبوه رسول الله ؛ لأن أبوته لآخر لا تنفعه بشىء ، إنما ينفعه البلاغ عن الله ، وأن يحمل له منهج ربه الذى يسعده فى دينه ودنياه .

---

(١) يجوز أن يكون قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ .. (٣٩) ﴾ [الأحزاب] صفة لـ ﴿ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ .. (٣٨) ﴾ [الأحزاب] .

إذن : فـفرحكم برسـول الله كرسـول أَوْلَى من فرحكم به كـأب ، وإلاَّ فما أكثر من لهم آباء ، وهم أشقياء في الحياة لا قيمة لهم .

وقوله ﴿ مَا كَانَ .. (٤٠) ﴾ [الأحزاب] النفي هنا يفيد الجـحود ، فهو ينكر ويجحد أنْ يكون محمد أباً لأحد من رجالكم ، وتأمل عظمة الأداء القرآني في كلمة ﴿ مِّن رِّجَالِكُمْ .. (٤٠) ﴾ [الأحزاب] ولم يَقُلْ مثلاً أبا أحد منكم ، لماذا ؟ قـالوا : لأنه ﷺ كان أباً لعبـد الله وللقاسـم ولإبراهيم ، وكانوا جـميـعاً منهم ، وهو ﷺ أبـوهم ، فجاءت كـلمة ﴿ رِّجَالِكُمْ .. (٤٠) ﴾ [الأحزاب] لتُخـرج هؤلاء الثلاثة ؛ لأنهم لم يبلُغوا مـبلغ الرجال ، فمحمد ما كان أبداً أبا أحد من الرجال ، وإنْ كان أباً لأولاد صغار لم يصلوا إلى مرحلة الرجولة .

وقوله ﴿ وَلَـٰكِن .. (٤٠) ﴾ [الأحـزاب] أي : أهم من أُبوَّته أن يكون رسول الله ﴿ وَلَـٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ .. (٤٠) ﴾ [الأحزاب] ليس هذا فـحسب ، ولكن أيضاً ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ .. (٤٠) ﴾ [الأحزاب] أي : الرسول والنبي الذي يختم الرسالات ، فلا يستدرك عليه برسالة جديدة .

وهذه من المسـائل التي وقف عندها المسـتشرقـون معتـرضين ، يقولون : جاء في القرآن : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِـتَـابٍ وَحِكْمَـةٍ ثُمَّ جَـاءَكُمْ رَسُـولٌ مُّـصَـدِّقٌ لِّمَـا مَـعَكُمْ لَتُـؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ..(٨١) ﴾ [آل عمران]

ومحمد ﷺ من ضمن الأنبياء الذين أُخذ عليهم هذا العهد ، بدليل : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ ..(٧) ﴾ [الأحزاب]

إذن : أخذ اللهُ العهدَ على الأنبيـاء أنه من ضمن مبادئهم أنْ يُبلِّغوا قومـهم بمقـدم رسول جـديد ، وأنه إذا جاءهم عليـهم أنْ يؤمنوا به ، وأنْ ينصروه ، كما بشَّـر مثلاً عيسى عليه السلام برسـالة محمد ﷺ

فقال : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .. (٦) ﴾ [الصف]

فكيف يخبر الله عن محمد أنه خاتم النبيين وهو واحد منهم ؟ نقول : نعم هو واحد منهم ، لكن إنْ كانوا قد أُمروا بأنْ يُبشِّروا وأنْ يُبلغوا أقوامهم برسول يأتي ، فقد أمر ﷺ أن يُبلِّغ قومه أنه خاتم الأنبياء والرسل .

لذلك يُرْوَى أن رجلاً ادَّعَى النبوة في زمن المأمون ، فأمر به فَوُضِع في السجن ، وبعد عدة أشهر ظهر رجل آخر يدعى النبوة ، فرأى المأمون أن يواجه كل منهما الآخر ، فأحضر المدعى الأول وقال له : إن هذا الرجل يدَّعى أنه نبى ، فماذا تقول فيه ؟ قال : هو كذاب ؛ لأننى لم أرسل أحداً - فارتقى إلى منزلة الألوهية ، لا مجرد أنه نبى .

والمرأة التى ادَّعَتْ النبوة أيضاً فى زمن المأمون لما أوقفها أمامه يسألها قال لها : ألم تعلمى أن رسول الله قال : لا نبىَّ بعدى[1] ؟ قالت : بلى ، ولكنه لم يقل لا نبية بعدى !

ثم يختم الحق سبحانه هذه المسألة بقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) ﴾ [الأحزاب] وما دام أن الله تعالى عليم بكل شىء فليس لأحد أنْ يعترض ؛ لأنه سبحانه هو الذى يضع الرسول المناسب فى المكان المناسب والزمان المناسب ، وقد علم سبحانه أن رسالة محمد تستوعب كل الزمان وكل المكان .

---

(١) مما رُوِى دليلاً على أنه لا نبى بعد رسول الله ﷺ حديث سعد بن أبى وقاص قال « خلف رسول الله ﷺ على بن أبى طالب فى غزوة تبوك ، فقال : يا رسول الله ، تخلفنى فى النساء والصبيان . قال : أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، غير أنه لا نبى بعدى » أخرجه أحمد فى مسنده (١٨٢/١) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾

أمرنا ربنا سبحانه بذكره ذكْراً كثيراً ؛ لأن الذكْر عمدة العبادات وأيسرها على المؤمن ؛ لذلك نجد ربنا يأمرنا به عند الانتهاء من العبادات كالصلاة والصيام والحج ، وجعله سبحانه أكبر فقال ﴿ ولذِكْرُ اللهِ أكبر .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت]

والذكر شغل الذاكرة ، وهي منطقة في المخ ، قُلْنا : إن المعلومة يستقبلها الإنسان في بؤرة شعوره ، فإذا أراد أنْ يحتفظ بها لحين الحاجة إليها حفظها في الحافظة ، أو في حاشية الشعور ، فأنت مثلاً ترى شخصاً فتقول : هذا الرجل لم أرَهُ منذ عشرين سنة ، وآخر مرة رأيته كان في المكان الفلاني .

إذن : الذكر لشيء كان موجوداً في بؤرة الشعور ، الذكر يعني قضية موجودة عندك بواقع كان لها ساعة وجودها ، لكن حصلتْ عنها غفلة نقلتها إلى حاشية الشعور أو الحافظة ، بعد ذلك نريد منك ألا تنساها في الحاشية أو في منطقة بعيدة بحيث تحتاج إلى مجهود لتذكرها ، إنما اجعلها دائماً في منطقة قريبة لك ، بحيث يسهل عليك تذكُّرها دون عناء .

وكذلك ينبغي أنْ يكون ذكرك لله ، فهو القضية الحيوية التي ينبغي أنْ تظلَّ على ذكْر لها دائماً وأبداً ، وكيف تنسى ذكر ربك وقد أخذ عليك العهد ، وأنت في عالم الذرِّ ، وأخذ منك الإقرار بأنه سبحانه

ربُّك ، الحق سبحانه خلق العقل ليستقبل المعلومات بوسائل الإدراك ، كما قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

فكأن السمع والبصر هما عُمْدة الحواسِّ ، وبهما نعلم ما لم نكُنْ نعلمه حين نزولنا من بطون أمهاتنا ، ونحن حين نستقبل المعلومات يظن بعض الناس أن الناس يختلفون فى ذلك ذكاءً وبلادةً ، فواحد يلتقط المعلومة من مرة واحدة ، وآخر يحتاج إلى أنْ تعيدها له عدة مرات .

والواقع أن العقل مثل آلة (الفوتوغرافيا) يلتقط المعلومة من مرة واحدة شريطةَ أن يكون خالياً ومستعداً لاستقبالها غير مشغول بغيرها ؛ لأن بؤرة الشعور لا تسع ولا تستوعب إلا فكرة واحدة ، وهذه المسألة تناولناها فى قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. (٤) ﴾ [الأحزاب]

فالإنسان الذكى هو الذى لا يشغل باله بأمرين فى وقت واحد ، ولا يفكر فى شىء وهو بصدد شىء آخر ، فإذا كانت بُؤْرة الشعور خالية فالناس جميعاً سواسية فى التقاط المعلومة .

لذلك ، المدرس الموفَّق هو الذى يستطيع أنْ يجتذب إليه انتباه التلاميذ ، ولا يعطيهم الفرصة للانشغال بغير الدرس ، وهذا لا يتأتى إلا بالتلطُّف إليهم وإشراكهم فى الدرس بالأسئلة من حين لآخر ، ليظل التلميذ متوقعاً لأنْ يسأل فلا ينشغل ، لذلك رأينا أن الطريقة الحوارية هى أنجح طرق التدريس ، أما طريقة سَرْد المعلومات فهى تجعل المدرس فى وادٍ والتلاميذ فى واد آخر ، كل منهم يفكر فى شىء يشغله .

وسبق أنْ قُلْنـا : إن الطالب حين يعلم بأهمـية درس من الدروس فيذاكـره وهو ذاهب للامتحان وهو يصعـد السلم إذا جاءه هذا الدرس يجـيب عنه بنصـه ، لماذا ؟ لأنه ذاكـره فى الوقت الحـرج والفرصـة ضـيـقة لا تحـتـمل انشـغالاً ولا تـهاوناً ، فـيلتـقط العـقل كل كلمـة ويُسجِّلها ، فإنْ أراد استرجاعها جاءت كما هى ، لماذا ؟ لأنها صادفتْ العقلَ خالياً غير مشغول .

وتأمل عظمة الخـالق سبحـانه فى مسألة التـذكُّر ، فالذاكـرة جزء صغير فى المخ ، فكيف بالطفل الصغير الذى لا يتجاوز الثامنة يحفظ القرآن كـاملاً ويُعـيده عليك فى أىِّ وقت ، ونحـن نتعجب مـن شريط التسجيل الذى يحفظ لنا حلقة أو حلقتين .

والقـرآن ليس حفظاً فـحسب ، إنمـا معـايشة ، فـحروف القـرآن ملائكة ، لكل حرف مـنه ملك ، والملَك يحب مَنْ يودُّه ، فإذا كنتَ على صلة بالقـرآن تكثر من تلاوته ، فـكأنك تود الملائكة ، فـساعـة تريد استرجاع ما حفظت تراصتْ لك الملائكة ، وجرى القرآن على لسانك . فإنْ هجرْته هجرك ، وتفلَّـت من ذاكرتك ؛ لذلك حذرنا رسول الله ﷺ من هجر القرآن ، فقال : « تعاهدوا الـقرآن ، فوالذى نفسى بيده لهو أشدُّ تفصياً[1] من الإبل فى عقلها »[2] .

وسـبق أنْ قُلْنا : إن الذكـر هو العـبـادة الوحـيـدة التى لا تكلفك شيـئاً ، ولا تُعطل جارحـة من جوارحك ، ولا يحـتاج منك إلى وقت ، ولا إلى مجهود ، وليس له وقت مخصـوص ، فمَنْ ذكر الله قائماً وذكر

---

(١) تفصَّى مـن الشيء : تخلَّص . ومعنى قـوله ﷺ عن القرآن : « هو أشد تفصياً من قلوب الرجال من النَّعَم من عقلها » أى : أشد تفلتاً وخروجاً . [لسان العرب ـ مادة : فصى] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤٢٣/١) من حديث ابن مسعود ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٧٩١) كتاب صلاة المسافرين من حديث أبى موسى الأشعرى .

الله قاعداً وذكر الله على جَنْبه عُـدَّ من الذاكرين ـ هذا بالنسبة لوضعك ـ ومَنْ ذكر الله بُكْرة ، وذكر الله أصيلاً ، أو غدواً وعشياً ، أصبح من الذاكرين ـ هذا بالنسبة للزمان .

ومن قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حولَ ولا قـوة إلا بالله العلى العظيم ، ثلاثين مرة فى اليـوم كُتبَ من الذاكرين ، ومَنِ استيقظ ليلاً فأيقظ أهله ، وصلَّى ركعتين فهو من الذاكرين .

إذن : فذكْر الله مـسألة سهلة تستطيع أنْ تذكـر الله ، وأنت تعمل بالفأس ، أو تكتب بالقلم ، تذكر الله وأنت تأكل أو تشرب .. إلخ فذكر الله وإنْ كان أكبر إلا أنه على المؤمن سهل هيِّن .

وقوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) ﴾ [الأحزاب] التسبيح : هو التقديس ، والتقديس هو التنزيه ، فعن أىِّ شىء نُنزه الله ؟ قالوا : ننزه الله فى ذاته ، وفى أفعاله ، وفى صفاته ، فالله تعالى له وجود ، ولك أنت وجـود ، وللنهـر وللجبـل وجود ، لكن وجـوده تعـالى ليس كوجود ما سـواه ، وجوده تعالى عن غير عدم ، أمـا وجود ما سواه فوجود عن عدم ، هذا فى الذات .

أما فى الأفـعال ، فالله تعالى له فـعْل كما أن لك فـعلاً ، لكن نزِّه ربك أنْ يكون فـعله كـفـعلـك ، وهذا مـا قلناه فى حـادثة الإسـراء والمـعراج ، وفى الفـرق بين سَـرَى وأسرى به ، فـإذا كان الفـعلُ لله تعالى فـلا تنظر إلى الزمن لأنه ليس فعلك أنت ، بل فـعْل الله ، وفعل الله بلا علاج ، إنما يقول للشىء : كُنْ فيكون .

وقلنا : إنه حتى فى طاقات البشر نجد الفعل يأخذ من الزمن على قدر قـوة فاعله ، فالولد الصـغير ينقل فى سـاعة ما ينقله الكبـير فى

دقيقة ، فلو قستَ فعلَ الله بقدرته تعالى وجدتَ الفعل بلا زمن .

كذلك نُنزه الله فى صفاته ، فالله تعالى له سمع نُزِّه أن يكون كسمعك ، وله وجه نُزِّه أنْ يكون كوجهك .. إلخ كل هذا فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

وحين تستعرض آيات التسبيح فى القرآن تجدها كثيرة ، لكن للتسبيح طابع خاص إذا جاء فى استهلالات السور ، ففى أول الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الإسراء]

فبدأت السورة بتنزيه الله لما تحتويه من أحداث عجيبة وغريبة ؛ لذلك قال بداية ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الإسراء] فالله له التسبيح والتقديس ثابت قبل أنْ يفعل ، وسبحان الله قبل أنْ يوجد المسبِّح ، كما أنه تعالى خالق قبل أنْ يوجد مَنْ خلق ، فهو بالخالقية فيه أولاً خلق ، كما قلنا فى الشاعر : تقول فلان شاعر ، هل لأنك سمعت له قصيدة أم هو شاعر قبل أن يقولها ؟ هو شاعر قبل أنْ يقولها ، ولولا أنه شاعر ما قال .

والمتتبع لألفاظ التسبيح فى القرآن يجد أنه ثابت لله تعالى قبل أن يخلق المسبِّحين فى قوله ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الإسراء] ثم بعد أن خلق الله الخَلْق ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. (١) ﴾ [الحشر]

وما يزال الخلق يُسبِّح فى الحاضر : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. (١) ﴾ [الجمعة] فتسبيح الله كان وما يزال إلى قيام الساعة ، لذلك يأمر الحق سبحانه نبيه ﷺ ومعه أمته ألاَّ يخرج عن هذه المنظومة المسبِّحة ، فيقول له :

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) ﴾ [الأعلى]

وجاء الأمر بذكر الله وبعد الأمر بتسبيحه تعالى ، وكأنه يقول لك كلما ذكرته : نزِّهه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً ، فمن مصلحتك فى رحلة الحياة ألاَّ يكون لله مثيل ولا شبيه ولا نظير ولا نِدٌّ ؛ لأن الجميع سيكونون تحت عَدْله سبحانه ، فتنزيه الله لمصلحتك أنت أيها المسبِّح .

وسبق أنْ ذكرنا فى ذلك قول أهل الريف (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) ، فوجود كبير فوق الجميع يحميك أنْ يتكبر أحد عليك ، إذن : عظمته تعالى وكبرياؤه من أعظم النعم علينا ، فساعة تُسبِّحه وتُنزِّهه احمد الله لأنه مُنزَّه ، احمد الله أنه لا شريكَ له ، وأن الناس جميعاً عنده سواء ، احمد الله لأن كلامه وأمره نافذ على الجميع ، احمد الله أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وليس بينه وبين أحد من خَلْقه نَسَب .

وكيف لا نذكر الله ولا نُسبِّحه ونحمده ، وهو سبحانه الذى خلق الخَلْق ، وقبل أنْ يخلقهم رتَّب لهم غاياتهم - والخَلْق : إيجاد على تقدير لغاية - بل وأعدَّ لهم ما يخدمهم ، فطرأ الإنسان على كون مُعَدٍّ لاستقباله ، فقبل أنْ يخلقه خلق له .

ثم ما كلفك بمنهجه مباشرة ، إنما تركك تربع فى نعمه ، منذ ميلادك إلى سنِّ البلوغ بدون تكليف ، ومعنى البلوغ أنْ تصل سنَّ الرشد فتُقبل على الله بعقل وفكر ، فالدين ليس تقليداً إنما عقيدة واقتناع .

وسبق أنْ شبَّهنا نضج الإنسان بنضج الثمرة ، فالثمرة لا تحلو إلا حين تنضج بذرتها ، وتصير صالحة للإنبات إنْ زُرعت ، وهذه من عظمة الخالق سبحانه ، ولو أن الثمرة تحلو وتستوى قبل نُضْج